الكتاب الثانى

النقد الأدبى فى الجاهلية

obeikandl.com

obeikandl.com

النقد الأدبى فى الجاهلية

رأينا قبل أن نتحدث عن النقد فى العصر الجاهلى أن نتكلم عن بيئة الجزيرة العربية ، ولما كان الأديب هو الابن الشرعى للبيئة ، فانه من الحتم اللزام على الناقد أن يضع فى اعتباره بيئة الأديب وعصره عند تقويمه وتحليله لأعماله وانتاجه .

وتحتل الجزيرة العربية رقعة واسعة من الأراضى ، تختلف فيما بينها اختلافا يكاد يجعل كل جزء منها وطنا مستقلا ببيئته وطبيعته ومجتمعه .

عاشت هذه المجتمعات فى السهول والجبال . كما عاشت فى الصحارى وعلى سواحل البحار ، ولهذا تميزت بتباين المناخ والطبيعة والأرض .

اتصفت هذه الأوطان بالجفاف وشدة الحرارة ، وعلى الرغم ما كان يحيطها من بحار ومحيطات ، كانت الأمطار التى تسقط عليها فى فترات موسمية محددة لا تسمح إلا بالقليل من الزراعة ، وفى بعض الأحيان كان الجفاف يستمر فى أجزاء من هذه الأماكن إلى ثلاث سنوات متتالية . ومع ذلك ففيها أمطار غزيرة . تنساب أنهارا وجداول . وكانت تسقط على شكل سيول تهدد الكعبة . وقد ذكر لنا التاريخ هذه السيول وتحدث عنها كثيرا ، وأفاض الحديث عن سيل العرم .

هذه الأمطار غير المنتظمة التى كانت تسقط موسمية فى أماكن محددة من الجزيرة العربية ، جعلت حياة أناسها غير مستقرة .

وكانت الأمطار تسقط فى اليمن وعسير ، ولهذا تميزت هاتان الرقعتان من أراضى شبه الجزيرة العربية بالزراعة المنتظمة ، وخلت البلاد الأخرى منها ، وكانت الأمطار تمثل الشريان الوحيد للزراعة فقد حرمتها الطبيعة من مياه الأنهار .

أدى هذا الجو المناخى إلى وجود أنواع معينة من النباتات ، فرأينا التمر فى الحجاز ، والشعير والأرز فى عمان ، والقمح فى اليمن ، والعنب فى الشام بالاضافة إلى بعض المحاصيل الأخرى فى شبه الجزيرة .

وهذه البيئات غير المستقرة فى بعض أماكنها ، دفعت الإنسان العربى إلى الجرى وراء لقمة العيش ، أو بالأحرى أدت به إلى الهجرة بحثا عن الماء وحبا فى الاستقرار ، ورغبة فى الحياة ، ومع رحلات الهجرة كان فراق الأهل والأحباب فبكى الديار فى قصائده ومعلقاته .

ولم تعرف هذه المجتمعات القديمة السيارة أو القطار كوسيلة للإنتقال ، ومن هنا نشأت أهمية الحيوان عند إنسان شبه الجزيرة العربية ، واتخذ منه وسيله لرحلاته عبر الأوطان التى كان يسعى إليها ويتخذها هجرة له .

واحتل الجمل المكانة الأولى بين هذه الحيوانات ، وكثيرا ما استعان به الإنسان العربى فى حياته ومعيشته ، وقدر لقاطنى الصحراء امتلاكه ، ويأتى الحصان العربى فى الدرجة الثانية ، وقد تميز هذا الفرس بالجمال والجلد والاخلاص لصاحبه لكنه لم يحظ بشهرة الجمل ، ولم يكن بمقدور سكان هذه الصحراء امتلاكه ، فقد كان شارة مميزة للثراء والغنى ، ولهذا كان الجمل صديق انسان البادية ، يلازمه ملازمة الظل ، ولا غرابة فى هذا ، فهو سميره فى الصحراء ، ووسيلة انتقاله بينها ، يأكل لحمه ويشرب لبنه ، ومن شعره ووبره يصنع خيمته .

ولمكانة الحيوان عند العرب ورد ذكره فى القرآن الكريم .

يقول الله تعالى :

***والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس * ان ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال لتركبوها * وزينة ويخلق مالا تعلمون*[1]** .

---

(١) سورة النحل .

وكانت بيئة البادية تعتمد على رعى الأغنام ، ويحتقر قاطنوها الزراعة والصناعة ولذلك اتسمت حياتهم بالبساطة ، وفضلوا حياة الصحراء عن البيئة الصناعية التى تعتمد على التعقيد ، وفى الصحراء يجدون حريتهم .

وقد يظن البعض أن هذه الحياة التى تميزت بالبساطة كانت هينة ، ولكن التاريخ يؤكد لنا بأنها كانت محفوفة بالمخاطر لما فيها من حيوانات كاسرة كالوحوش والسباع وحشرات قاتلة وحيات سامة تفتك بالبدو .

ولم تكن هذه الحيوانات المتوحشة تمثل المصدر الوحيد لمخاطرهم ، وإنما هم أنفسهم كانوا مصدر مخاوف ، وكان بعضهم فى الكثير من الأحيان يحمل العداء للبعض الآخر ، ومن هنا كانت حياتهم مليئة بالحروب .

هذه البيئة جعلت العربى يتسم بغلظة القلب ، ولا نعنى أنه خرج إلى البادية فظا ، وإنما الطبيعة هى التى جعلته يتميز بهذه الطباع ، فمن أجل طعامه يحمل سيفه ويشق الأرض باحثا عن القوت ، وقد يجد هذا القوت فى صيد سمين ، وأحيانا تدفعه الحياة إلى الفتك بإنسان آخر والاستيلاء على ما معه .

ولهذا ، كثرت غارات المغيرين بين عرب البادية ، وكلها نتاج الطبيعة القاسية التى فرضتها البيئة المناخية ، فانقسم قاطنو الصحراء إلى فرق متحاربة تتصارع فيما بينها بقصد البقاء وفى سبيل القوت .

وأنا زعيم بأن الجفاف وجدب الأرض وقسوة الحياة قد رسمت قيم ومواضعات عرب الصحراء ، واحساس انسان البادية بالضعف أمام عنف الطبيعة جعله يتميز بالقسوة والشجاعة وهما من الشعارات المقدسة عند العرب كما تتمثل هذه المواضعات فى واجب الضيافة والنجدة .

وكان عدم الالتزام بهذه القيم والمواضعات : يعد جريمة أخلاقية تتنافى مع تقاليد قاطنى الصحراء .

لهذا ، وجدت القبيلة عند عرب الصحراء ، ففى مثل هذه البيئة يصعب على الانسان العربى أن يعيش وحيدا بعيدا عن بقية الجماعات ، وكيف يمكنه يحيا لنفسه وبنفسه أمام قسوة الطبيعة .

والقبيلة عند عرب ما قبل الإسلام جماعة من الاعراب البدائيين ، يعيشون الخيام ويتخذون من البادية مأوى لهم ، ويتسم الكثير منهم بالغزو والأخذ بالثأر ، وجاز لنا القول بأن البعض منهم اتخذ من الحضر سكنا لهم ، فكانت الأوس والخزرج تحيا فى المدينة ، وعبدالقيس تعيش فى عمان والبحرين .

وعرفت هذه القبائل نظام المعاهدات ، فرأينا عندهم الأحلاف التى كانت من عوامل التوفيق بينها ، ونعتقد أن هذه الأحلاف التى كانت أشبه ما تكون بالاتحادات لعبت دورا متميزا فى قيام القبائل ، فكانت العشائر الضعيفة تتحد مع العشائر القوية لتحميها .

وعلى الرغم أن هذه الأحلاف ساعدت على وجود ما يشبه الوحدة بين القبائل ، لكنها فى ذات الوقت كانت من دوافع التفرقة بينها ، وبخاصة عندما تشعر قبيله بظروف جامدة تدفعها إلى الحرب ، الأمر الذى أدى إلى انتشار ظاهرة الأخذ بالثأر .

وهكذا ، نجد أن الصراع من أجل البقاء كان الدافع الأساسى وراء سلوك انسان البادية ، بل لقد انعكس هذا على جميع أوجه أنشطته المختلفة ، وترى هذا فى جميع الاغراض الشعرية التى تناولتها القصيدة العربية فى الهجاء والمدح ، فى الفخر والحماسة ، فى الخمر والرثاء ، بل فى الغزل أيضا كما نرى فى هذه الأبيات من معلقة أمرئ القيس .

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل[1]

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا ... على حراصا لو يسرون مقتلى[2]

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل[3]

---

(١) بيضة خدر : أى رب امرأة كانها بيضة فى خدرها ، لا يرم خباؤها : لعزها يتعرضع لخبائها ، الخباء : ما كان على عمودين أو ثلاثة ، وصف المرأة بأنها مصونه مكنونة ، غير معجل : غير خائف .

(٢) الا حراس : جمع حرس . معشر : يعنى قومها .

(٣) الوشاح : خرز يعمل من كل لون ، المفصل : الذى نصل بالزبرجد ، أثناء الوشاح : نواحيه ، وواحد الاثناء ثنى .

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ... لدى الستر الا لبسة المتفضل[١]

فقالت : يمين الله مالك حيلة ... وما أن أرى عنك الغراية تنجلى[٢]

فقمت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثرينا زيل مرط مرحل[٣]

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى ... بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل[٤]

هصرت بفرعى رأسها فتمايلت ... على هضيم الكشح ريا المخلخل[٥]

فى هذا المقطع الغزلى ، نرى الشاعر كما لو كان ينشد أبياتا فى الحماسة ، أو كما لو كان فى معركة حربية ، فنراه يتباهى بقوته ، ويعتز بشخصيته ، ومن أجل معشوقته يركب الصعاب ويقتحم المخاطر .

وهذه الأبيات أقرب ما تكون إلى المغامرات ، والتصارع مع الآخرين من أجل البقاء ، ولا أظن أننا نغالى إذا قلنا إن الشاعر هنا أبعد ما يكون عن زيارة بيت حبيبته ، إنه يذكرنا بمن يخترق الحصون والقلاع لكى ينتصر على العدو فى ساحة الحرب دفاعا عن النفس وحفاظا على الذات .

ولعل خاصية الحرب من أهم الخصائص التى تميزت بها البيئة الجاهلية ، لقد كانت حياة عرب ما قبل الإسلام تسودها الحروب والنزال والمعارك الحربية وسفك الدماء حتى ليخيل إلينا أنها أصبحت تقليدا من تقاليد هذا المجتمع . ولذلك

---

(١) نضت لنوم ثيابها : سلخت ثيابها عنها وألقتها ، الا لبسة المتفضل : ليس عليها من الثياب الا شعارها وهو ثوبها الذى يلى جسدها .

(٢) مالك حيلة : ليس لك حجة فى أن تنضحنى ، ومعناه أيضا لا أقدر أن أحتال فى دفعك عنى ، تنجلى : تتكشف .

(٣) قمت بها : قمت بها وقد حاصرتها ، تجر : تجر ذيلها ، على أثرنا : لتعفى الأثر لئلا يستدل علينا ، المرط : نوع من الكساء ، مرحل : لون من البرود .

(٤) أجزنا : قطعنا وسرنا ، انتحى : اعترض ، الخبث : بطن من الأرض غامض ، قفاف : جمع قف وهو ما غلظ من الأرض وارتفع ، العقنقل : المنعقد الداخل بعضه فوق بعض .

(٥) تمايلت : أحنت إلى رأسها أى أمالته ، هضيم : ضامر ، الكشح : ما بين منقطن الاضلاع إلى الورك ، المخلخل : موضع الخلخال .

الانبارى : شرح القصائد السبع الطوال ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ ص ٤٨ ومابعدها .

لم تسلم حياتهم من مخاطر هذه الحروب ، وكانت ظاهرة الأخذ بالثأر تمثل قانونا مقدسا عندهم ، يدين له الجميع بالولاء ، وكان هذا القانون يرقى عندهم إلى مرتبة الايمان ، بل نراهم وقد سنوا لهذه الظاهرة الرذيلة الشرائع . فكان رجال القبيلة يحرمون على أنفسهم شرب الخمر ، ومعاشرة النساء حتى يتحقق لهم الأخذ بثأرهم من أعدائهم ، وتوارث الأجيال والأحفاد هذه العادة الذميمة ، وهكذا تستمر القبيلتان فى حرب حتى يتدخل من يصلح بينهم ، ويتحمل الديات ، وبعد أن تدمر الحروب كل ما هو جميل وخير وحسن . وما كانت القبائل المتحاربة تقبل الديات إلا فى مراحل متأخرة ، إذ كانت تعتبرها عارا ، فالدم عندهم لا يشفيه إلا الدم ، ومن أشهر هذه الحروب ، حرب البسوس التى اشتعلت بين قبيلتى بكر وتغلب فى أواخر القرن الخامس الميلادى والتى استمرت أربعين سنة .

ومن الشعراء الذين اشتهروا بجودة الشعر فى المعارك والحروب عنترة حيث يقول :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم[1]

وأوى مغانم لو أشاء حويتها ... فيصدنى عنها الحيا وتكرمى

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هربا ولا مستسلم[2]

جادت له كفى بعاجل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقوم[3]

برحيبة الفرغين يهدى جرسها ... بالليل معتس الذئاب الضرم[4]

---

(١) الوقيعة : الوقعة ، الوغى : الصوت فى الحرب ، اعف عند المغنم : تشره نفس إلى الغنيمة ، بمعنى أنه يهب نصيبة إلى الناس .

(٢) المدجج : الذى قد توارى بالسلاح ، نزال المنازلة ، لا ممعن هربا : لا يمعن هربا فيذهب ويبعد ، أى لا يفر .

(٣) بعاجل : سبقته بالطعن ، المثقف : المصلح المقوم ، الكعوب : عقد ، الصدق : الصلب .

(٤) الرحيبة : الواسعة ، الفرغين : مثنى فرغ ، والفرغ مدفع الماء إلى الاودية والجمع فروغ أو فرغ بمعنى مصب الدلو ، الجرس : الصوت ، المعتس : المبتغى ، والمعتس من الذئاب . الذين يطلبون الفريسة ، الضرم : الجياع .

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[١]

فتركته جزر السباع ينشنه ... يقضمن حسن بنانه والمعصم[٢]

ومشك سابغة هتكت فروجها ... بالسيف عن حامى الحقيقة معلم[٣]

زيد يداه بالقداح إذا شتا ... هتاك غايات التجار ملوم[٤]

لما رآنى قد نزلت أريده ... أبدى نواجذه لغير تبسم[٥]

عهدى به مد النهار كأنما ... خضب اللبان ورأسه بالعظلم[٦]

فطعنته بالرمح ثم علوته ... بمهند صافى الحديدة مخذم[٧]

بطل كأن ثيابه فى سرحة ... يحذى نعال السبت ليس بتوأم[٨]

ياشاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت على وليتها لم تحرم[٩]

فبعثت جاريتى فقلت لها ذهبى فتجسسى أخبارها لى واعلمى

قالت : رأيت من الأعادى غرة ... والشاة ممكنة لمن هو مرتم[١٠]

وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشاء من الغزلان حر أرثم[١١]

---

(١) شككته : انتظمته .

(٢) الجزر : جمع جزرة ، والجزرة : الشاة والناقة تذبح وتنحر ، ينشنه : يتناوله بالأكل .

(٣) مشكها : سمرها ، والسمر : شك شيئا بالمسمار ، السابغة : الدرع الفاضلة الواسعة التامة ، هتكت : قطعت ، حامى الحقيقة : يحمى ما يحق عليه ، معلم : قد أعلم نفسه .

(٤) الزند : السريع الضرب بالقداح ، إذا شتا : يضربون بالقداح فى شدة الزمان وكلب البرد ، الغاية : راية المحاربين ، الراية : الغاية ، ملوم : يلازم على انفاق ماله .

(٥) أبدى نواجذه : كلح فى وجهى فبدت أضراسه ، الناجذ : آخر الأضراس .

(٦) العظلم : نوع من الشجر .

(٧) المهند : المصنوع فى الهند ، المخذم : الذى يرمى بها ، والمخذم من السيوف الذى ينتسف القطعة .

(٨) كأن ثيابه فى شرحه : يصفه بالطول ، يحذى نعال السبت : ليس براعى أبل ، السبت : جلود البقر .

(٩) باشاة : كناية عن المرأة ، والعرب أيضا تكنى عن المرأة بالنعجة ، قال الله تعالى فى سورة ص (ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) والنعجة هنا المقصود بها المرأة قنص : لمن حلت له : لمن قدر عليها ، حرمت على : من قوم أعداء .

(١٠) مرتم : الذى ينظر ويلتمس ، غرة : الاعادى : جمع أعداء .

(١١) الجيد : العنق ، الجداية : من الظباء بمنزلة الجدى من الغنم .

نبئت عمرا غير شاكر نعمتى ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى ... إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم(١)

فى حومة الحرب التى لا تشتكى ... غمراتها الأبطال غير تغمغم(٢)

إذ يتقون بى الأسنة لم أخم ... عنها ولكنى تضايق مقدمى(٣)

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم(٤)

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم

مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم(٥)

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم(٦)

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

ولقد شفى نفسى وأبرأ أسقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى

والخيل تقتحم الخبار عوابسا ... من بين شيظمة وأجرد شيظم(٧)

ذلل ركابى حيث شئت مشايعى ... ليى وأحفزه بأمر مبرم(٨)

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم(٩)

---

(١) تقلص : التقلص يحدث نتيجة الفزع ، وضح الفم : بياض الأسنان الوضح : اللبن .

(٢) حومة : معظم ، الأبطال : الأشداء ، التغمغم : الصوت الذى تسمعه ولا تفهمه .

(٣) يتقون : يجعلون ، الأسنة : جمع سنان ، وهو الذى يطعن به ، لم أخم : لم أشعف تضايق مقدمى : ضاق المكان الذى أقدم فيه .

(٤) يتذامرون : يحرض بعضهم بعضا أو يزجر بعضهم بعضا .

(٥) تسربل : سار له سربال من الدم .

(٦) العبرة : الدمعة ، أزور : تمايل ، الزور : الميل .

(٧) الاقتحام : الدخول بسرعة ، الخبار : الأرض اللينة ذات الحجرة ، العوابس : الكوالح ، الشيظم : الطويل ، الأجرد : القصير الشعرة .

(٨) الذلول : من الابل ضد الصعب ، الركاب : الابل .
مشايعى ليى : عقلى يغرب عنى ، أحفزه : أدفعه . أمر مبرم : رأى ليس بمنتقض .

(٩) ابنا ضمضم : هرم وحصين ابنا ضمضم الذى قتله .
أحمد الشنقيطى : المعلقات العشر واخبار شعرائها ، ص ١٢٩ ومابعدها .

فى الأبيات السابقة ، يعرض عنترة مواقفه إذا حضر الحرب ، ونجد فيها صورة حية تعكس مواضعات العصر الجاهلى ، ففيها القوة والشجاعة ، وانها صورة للرجل العربى فى عصر ما قبل الإسلام ، ولوحة صادقة عن البيئة الجاهلية بكل ما تمتاز به .

ونرى عنترة ينشد أبياتا فى حيوان البادية الذى كان له أثره فيها ، فيتحدث عن فرسه ، والشاعر رفيق هذا الحيوان ، يشعر بآلامه ، ويحس بأوجاعه .

وعنترة عربى كريم الأخلاق ، رقيق المشاعر حتى فى لحظات سكره وشرابه تراه يتمسك بخصاله الحميدة فلا تؤثر فيها الخمر .

فإذا شربت فاننى مستهلك ماليى وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى[1]

وسمة الكرم من أخص خصائص المجتمع الجاهلى ، وتعد هذه الخاصية من أهم الخصال التى تميز بها عرب ما قبل الإسلام ، ونظن أن هذه الخصلة نتاج حياتهم التى اتسمت بالشظف والقسوة ، وقلما كانت الصحراء تجود عليهم بالخير ولهذا كان الأغنياء يتسابقون إلى نحر الابل لأطعام الفقراء والمحتاجين إذا ما حلت السنوات العجاف ، كما كانوا يذبحونها إذا ما نزل عندهم ضيف . أو قدم إليهم راحل تقذف به الصحراء ، ومن عاداتهم التى تكشف عن كرمهم أو كشارة مميزة له أنهم كانوا يوقدون النار ليلا فوق الجبال ، علها تهدى مسافر ضال فى البادية فينزل عليهم سهلا آمنا حتى لو كان من أعدائهم .

ولقد ضرب بكرم الجاهليين المثل الأعلى ، فسمعنا وقرأنا عن حاتم الطائى ومن بين هذه الخصال الوفاء بالوعد ، مهما كلفهم هذا الوفاء من صعاب ومخاطر وعرف عنهم الجار إذا استجار بهم وأعطوه عهدا بالدفاع عنه والوقوف بجانبه ، وهذه الخاصية جعلتهم ـ كما ذكرنا ـ يقدسون الاحلاف ويتمسكون بسننها حتى ولو أدى هذا إلى الحرب من أجل حماية الضعيف ، فهم لا يقبلون الضيم أو الهوان .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٩ .

والمرأة من الشارات المتميزة فى المجتمع الجاهلى ، ولعبت بعصاها السحرية فى هذه البيئة ، وقد عرف هذا المجتمع نوعين من النساء ، المرأة الأمة ، والمرأة الحرة وتنوع كل منهما إلى أنواع .

وشهدت البيئة العربية قبل الإسلام الكثير من الاماء ، منهن الفاجرات اللاتى اتخذن البغاء حرفة لهن ، وفيهن من يضرب المزهر وغيره من الآلات الموسيقية فى حانات الخمر ، ومنهن من يعمل فى خدمة الحرات كرعى الابل والأغنام ، وأطلق على هذه الفئة الأخيرة (الجوارى) وكان العرب إذا انجبوا منهن أنكروا بنوتهم ، كما حدث مع عنتره بن شداد الذى أجبر قبيلته للاعتراف به بعد ما أظهر قدرته وبسالته فى الحرب للدفاع عنها وحمايتها .

وأما الحرة ، فكانت تقوم بطهى الطعام وأعمال النسيج وتقويم الخباء ، ومن يرجع إلى كتاب الأغانى يجد أن بنات السادة كن يتمتعن بمكانة خاصة ، حيث يخترن أزواجهن ، بل ينفصلن عنهم إذ لم يحسنوا معاملتهن . وبلغت مكانة الشريفات إلى حد حماية من يستجير بهن .

وكانت الحرات يصحبن الرجال فى الحروب ، ويدفعن الحماسة فى نفوسهم بالأناشيد ، فإذا ما لقى أحدهم مصرعه فى ساحة القتال ، ندبنه ندبا شديدا ، وبكين عليه بكاء حارا ، ورحن يحرضن الرجال والعشيرة للأخذ بثأره ، ونجد هذا فى شعر الخنساء قبل اسلامها .

كما اتسمت المرأة العربية فى العصر الجاهلى بالجمال الذى يشد الرجل إليها ، وكثيرا ما وصف شعراء هذا العصر جمالها ، وما كانت تتزين به من حلى وثياب . ونرى الشعراء لم يقفوا عند حد فتنتها فحسب ، بل تنبهوا إلى ما تتمتع به من طباع حسنه وأخلاق حميدة ، وراحوا يذكرونها فى قصائدهم وأشعارهم .

يقول الشنفرى فى زوجته[1] :

---

(١) المفضليات : ٢٠ .

لقد أعجبتني لاسقوطا قناعها ... إذا ما مشت ، ولا بذات تلفت

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها ... لجارتها إذا الهدية قلت[١]

تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوت بالمذمة حلت[٢]

كأن لها فى الأرض نسيا تقصه ... على أمها ، وان تكلمك تبلت[٣]

أميمة لا يخزى نثاها حليلها ... إذا ذكر النسوان عفت وجلت[٤]

إذا هو أمسى آب[٥] قرة عينه ... مآب السعيد لم يسل أين ظلت[٥]

يذكر الشاعر فى هذه الأبيات زوجته بالوقار والخجل ، فإذا ما خرجت تمشى فى الطريق ، لا يسقط عنها قناعها ، ولا تلتفت ، ومن خصالها الكرم ، فهى كريمة مضيافة تهب لنجدة جارتها إذا ما ألم بها القحط فتقدم إليها اللبن .

ومن خصالها الحياء، فلا ترفع بصرها عن الأرض حتى ليخيل للمرء أنها تفتش عن شئ فقدته ، وإذا حاول انسان مقاطعتها فى الطريق ليتحدث معها ، فجدها لا تطيل الحديث معه ، وتمضى فى طريقها .

وزوجته محل ثقته ، فإذا ما عاد من مهمته رجع إليها قرير العين ، لا يسألها أين كانت لأن من خصالها العفة والشرف .

ولا غرابة إذن أن نجد معلقات شعراء الجاهلية تذكر المرأة وتتغنى بمحاسنها بل أنت واجد المرأة فى الكثير من افتتاحيات قصائدهم الشعرية ، لما كانت تتمتع به فى ذلك العصر من منزلة رفيعة ، وما كان لها من تأثير فى حياة أفراده .

---

(١) الغبوق : ما يشرب بالعشى .

(٢) منجاة : من النجوة الارتفاع .

(٣) النسى : الشئ المنسى ، تصه : تتبعه ، أمها : تقصدها .

(٤) النشا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سئ ، حليلها : زوجها .

(٥) آب : رجع .

(٦) المفضل الضبى : المفضليات ـ تحقيق أحمد شاكر ، عبدالسلام هارون ـ ص ١٠٩ .

لقد كان لامرأة العصر الجاهلى وزنها وثقلها ، بل نراها قد منحت قدرا كبيرا من الحرية ما نظن أن غيرها فى المجتمعات الأخرى فى ذلك الوقت قد تمتعت به .

ورب قائل يقول ، إذا كانت امرأة الجاهليين قد منحت هذه الحقوق ، فما علة نزول الآية الكريمة فى قوله تعالى :

*وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به * أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ما ساء ما يحكمون*[1] .

وأقول ، إن هذه الآية قد نزلت من أجل هذه الفئة القليلة من عرب الجاهلية التى اتسمت بغلظة القلب الذين يقتلون بناتهم خشية أن يصبحن إماء إذا ما كبرن ، ولعلها كانت بدافع الفقر .

ولا تقتلوا أولادكم من أملاق نحن نرزقكم واياهم[2] .

ويقول الله تعالى :

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا[3] .

أعنى أن ظاهرة وأد البنات لم تكن منتشرة انتشارا واسعا فى البيئة الجاهلية وإنما كان انتشارها فى نطاق ضيق ومع نفر قليل من العرب .

ومع هذه الخصال الحميدة التى تميز بها المجتمع العربى فى العصر الجاهلى ، نجد هذا المجتمع وقد أصابته بعض الآفات والأمراض .

عرفت بيئة ما قبل الإسلام الخمر ، بل الادمان فيه ، والأحاديث عن الخمر عند شعراء الجاهلية أحاديث طويلة ، فتكلم الشعراء عن الكأس والنديم وذكروا

---

(١) سورة النحل : الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٣١ .

الدن والحان ، كما عرفوا استباحة النساء ، ولعل من أهم هذه الآفات الميسر والقمار ، ومضمان ذلك أن القرآن الكريم ذكر بعض الآيات التى تحرمها يقول الله تعالى :

***يسألونك عن الخمر والميسر * قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس * واثمهما أكبر من نفعهما*(١)**

ووصف الله عز وجل الخمر والميسر بأنهما رجس من عمل الشيطان وعلينا اجتنابهما .

***يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون*(٢) .**

فى هذه الآيات ينهى الله عباده عن شرب الخمر ولعب الميسر ، لأنهما من العادات القبيحة التى تفشت فى العصر الجاهلى ، والآيات الكريمة تهديد وترهيب من الحق سبحانه وتعالى .

وعن الرسول ﷺ أنه قال :

«لعنت الخمر على عشرة أوجه ، لعنت بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها» .

وقد انتشرت الأمية بين أفراد هذا المجتمع انتشارا واسعا ، مما ساعد على ضياع أو فقد الكثير من الشعر الجاهلى .

ضاع الكثير من تراثنا الشعرى العربى الجاهلى ، ولم يصلنا منه إلا القليل جدا ، ونظن أن مرد هذا انما يعود إلى ظاهرة الأمية التى انتشرت بين أفراد المجتمع الجاهلى ، وما وصلنا من هذا التراث إنما كان بفضل الرواة الذين كانوا يحفظون القصائد عبر الأجيال .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٩ .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ٩٠ ـ ٩١ .

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير»[١] .

هذا القليل الذى انتهى إلينا ، وبرغم أنه أقل القليل ، لكنه يمثل المرحلة الأخيرة ، أو بالأحرى عصر ازدهار القصيدة الجاهلية التى بدأت بالمهلهل بن ربيعة وامرئ القيس ، ومع هذين الشاعرين ظهرت القصيدة العربية بأصولها وقواعدها وشكلها ، واتخذها الشعراء من بعدهما أمثلة لهم ، كما اتخذت القصيدة مع المهلهل وامرئ القيس الأغراض الشعرية التى اشتهرت بها ، من ذكر الديار وبكاء على الاطلال ثم وصف للناقة والانتقال أخيرا إلى المدح أو الفخر .

يقول ابن قتيبة :

«وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والاثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين إذ كان نازلة العمد[٢] فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى اصغاء الاسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، والف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، وضاربا فيهم بسهم ، حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل فى شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل وحر الهجير ، ونضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، ودمامه[٣] التأميل ، وقرر عندما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٢٣ .

(٢) نازلة العمد : هم أصحاب الابنية الرفيعة الذين ينتقلون بأبنيتهم .

(٣) الذمامة : الحق والحرمة .

المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الاشباه ، وصغر فى قدره الجزيل .

«فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب ، وعدل بين هذه الاقسام ، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظماء إلى المزيد .

«فقد كان بعض الرجاز أتى نصر بن سيار والى خراسان لبنى أمية فمدحه بقصيدة ، تشبيبها مائة بيت ، ومديحها عشرة أبيات .

«فقال نصر :

«والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك فإذا أردت مديحى فاقتصد فى النسيب ، فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدار لام الغمر دع ذا وخبر مدحة فى نصر

«فقال نصر :

«لا ذاك ولا هذا ولكن بين الامرين»[1] .

وهكذا ، نجد أن الشاعر المجيد عند شعراء الجاهلية من التحم بهذه الاغراض الشعرية التى أتى بها المهلهل وأمرؤ القيس ، وأصبحت هذه الاغراض أصولا موروثة يأخذها كل جيل عمن سبقه من الأجيال ، بل قل انها عندهم كالقيم التى لايجوز التخلى عنها .

ولهذا ، جاز لنا القول بأن النقد فى العصر الجاهلى اتجه إلى الشعر ، فقد كان لهذا الفن من الفنون الأدبية قصب السبق لأنه انفرد بخصائص لا نجدها فى الأنواع الأدبية الأخرى ، ساعد على هذا بيئة المجتمع الجاهلى التى انتشرت فيها الأمية ولهذا كانت عوامل الوزن والقافية والموسيقى فى القصيدة من الأسباب التى ساعدت على حفظ الشعر الجاهلى وروايته ، الأمر الذى جعل النقد يتجه إليها .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٧٤ ـ ٧٦ .

واستند النقد فى هذه المرحلة على الذوق والفطرة ، واعتمد على الذاتية ، أو بالاحرى قام على الرأى الفردى الذى ينتقد البراهين والأدلة ، فكانت أحكام الشعراء أو الرواة انما تعود إلى تذوقهم الذاتى للبيت أو القصيدة . وكان نقاد العصر يصدرون أحكاما غير محددة ، وكثيرا ما كانت تتعرض للشاعر وقصيدته ، وقد يتحدث النقاد عن بيت فى القصيدة أو شطر منه .

وتعددت هذه الأحكام وتلونت ، وعرض بعضها لصاحب القصيدة ، بينما تكلم البعض الآخر عن موضوعات شعره ، وجعلت بعض الأحكام حديثها عن اللفظ .

وكانت هذه الأحكام عامة وتخلو من التحليل العميق والتعليل ، ونرى أن مرد هذه البساطة فى الأحكام إنما يعود إلى خاصية عدم الاستقرار التى اتسم بها المجتمع الجاهلى ، كما افتقد هذا المجتمع سمات التأمل والتفكير والتعقيد وهى من السمات التى تعمل على ازدهار النقد .

وبينما كانت هذه الرؤية الذاتية تجسد تفسير الشعراء والنقاد للنص الشعرى نجد اعجاب جمهور المستمعين يتمثل فى الهتاف للشاعر ، وإن لم يحظ الشاعر بالقبول قابله الجمهور بالسخط ، وكم كان الشاعر الجاهلى فى حاجة إلى هتاف الجمهور حتى ينتشر شعره بين الناس ويتناقله الرواة .

وقد أوردت كتب التراث الكثير من هذه الأحكام العفوية ، ونرى ابن قتيبة يقوم الشعراء فيقول :

«أشعر الشعراء أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب» .

ولهذا أطلقوا على الأعشى صناجة العرب ، وهذه الأحكام التى ذكرها ابن قتيبة عن القدامى هى فى الحقيقة أحكام عامة ، تتصل بفنهم الشعرى ، وما تتضمنته قصائدهم من سمات تميزوا بها ، كما تتحدث عن درجات اجادتهم فى أغراض الشعر المتعددة بالنسبة إلى أحوال هؤلاء الشعراء .

ويعنى التدامى أن شعر زهير بن أبى سلمى أجود ما يكون إذا مدح فى قصائده عن رغبة لا عن رهبة ، وليس حبا فى المال أو طمعا فى الثراء ، وإنما إرضاء لمذهب الشاعر وطبيعته ، بينما نجد جودة شعر النابغة الذبيانى تتجسد فى حالته إذا ما رهب بطش الملوك ، أما الأعشى فانه يجود بالشعر عند شربه الخمر والاستماع إلى الغناء ، كما يجود فى هذا الشعر طمعا فى المال ، ويجود عنترة بشعره فى المعارك والقتال .

ومن هذه الأحكام الأسماء التى أطلقها النقاد القدماء وتحمل سمات فنهم الشعرى ، فالمهلهل سمى كذلك لأنه أول من هلهل الشعر أوقصده ، والنابغة الذبيانى لنبوغه فى الشعر ، والمرقش لتنميقه الشعر وتجميله وتحسينه .

كما أطلقوا على قصائد زهير بن أبى سلمى «الحوليات» لأنه كان ينظم القصيدة فى عام ، وكان بعد الانتهاء من نظمها يعيد النظر فيها وينقحها .

وكانت هناك جماعة اهتمت بنظم الشعر والعناية به وعلى رأسها أوس ابن حجر وزهير بن أبى سلمى والحطيئة .

كما أورد صاحب الأغانى الكثير من هذه الأحكام الذاتية ، فحين أنشد حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق ... فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما[1]

قال له النابغة :

ـ أنك لشاعر لولا انك اقللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك ، ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت يلمعن فى الضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا وقلت يقطرن من

---

(١) العنقاء : هو ثعلبه بن عمرو ، المحرق : الحارث عمرو ، الجفنات : القصاع ، الغر : البيض من كثرة الشحم الذى فيه وكثرته دليل الكرم .

[illegible] فقالت له أقتل ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، فقام الخلفان ملكلول فمنقطعا » (١).

ومما أورده صاحب الأغانى أيضا هذه الرواية التى تقول أن المسيب بن علس قد مر بمجلس بنى قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم قصيدته التى مطلعها :

ألا أنعم صباحا أيها الربع واسلم نحييك عن شحط وان لم تكلم

فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهم عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكدم

قال طرفة بن العبد :

استحسن الجمل ، ذلك لأن الصيعرية سمة من سمات عنق الناقة ولا تكون للبعير (٢).

وهذا يعنى أن الشاعر استهجن كلمة الصيعرية .

وهناك الكثير من هذه الأحكام الذاتية ذكرها صاحب الاغانى والمرزبانى وهى معايير نقدية تقوم على ما تجود به قرائح النقاد والشعراء وأذواقهم ، كما كانت تستند على حسهم اللغوى العميق ودلالات الألفاظ وما توحى به من صور واستعمالات ، وانتقاء اللفظ المناسب فى الغرض الملائم والموقف المناسب .

لم تكن هذه المعايير مقننة أو محددة ، فقد كانت تفتقد الأسس الثابتة ، وكثيرا ما استهجن القدماء أو استهجنوا دون تعمق فى تبريرهم لهذا الاستهجان أو ذاك الاستهجان ، وإنما كانت عللهم مقصورة على رأيهم الذاتى الذى يقوم على كلمة أو كلمتين .

(١) ارجع إلى :
أ - الأصفهانى : الاغانى ص ٢٤٠ جـ ٩ ط وزارة الثقافة .
ب - المرزبانى : الموشح ص ٨٢ .

(٢) ارجع إلى :
أ - الأصفهانى : الاغانى ص ١٣٢ ، جـ ٢١ ط الكتب .
ب - المرزبانى : الموشح ص ١١٠ .

وكانت وجهة نظر الناقد التى تعتمد على الفطرة تلعب دورا متميزا فى ذلك العصر ، وهكذا لم يكن النقد فى العصر الجاهلى نتاج الدراسة العميقة أو التحليل الموضوعى أو البحث العلمى الذى يقوم على الأسانيد والبراهين .

وكما ذكرنا فإن هذه الأحكام الذاتية لا تنفصل عن العامل البيئى ، وإن فصل بعض النقاد المحدثين بينهما . وكانت لبيئة الخيام أثرها فى القصيدة الجاهلية ، وفى البادية وجدنا الأسواق التى كانت تقام فيها المباريات الشعرية وهى أشبه ما تكون بالمسابقات الأدبية فى العصور الحديثة ، وكانت تضرب للنابغة قبة حمراء فى سوق عكاظ ، ويسرع إليه الشعراء يعرضون عليه قصائدهم للحكم عليها ، فيستحسن البعض ، ويستهجن البعض الآخر ، وكان النابغة عند تقويمه لاعمال الشعراء يضع العامل البيئى فى الاعتبار الأول ، وكثيرا ما نبهه شعراء المدينة إلى هذه القضية ، ويشيرون إليه أن بيئتهم الحضرية تجعلهم يرتبطون بألفاظ لم تتوفر عند شعراء البادية .

وجاز لنا القول بأن النقد فى هذه المرحلة اعتمد على الأحكام المجردة ، أعنى أنه تميز بخلوه من الشرح المستفيض للقصيدة والتعليق عليها .

وبرغم هذه الأحكام النقدية المجردة التى كانت تنتهى فى القليل من الأحيان ببعض العلل ، لكننا كنا نجد الناقد فى علله يأتى بها كما لو كانت طفرة ولم يمهد لها بالأسباب .

ومع ذلك ، فإننا نقدر لنقاد الجاهلية صنيعهم ، ومن الجحود أن ننكر ما قدموه ، ولنا أن نعذرهم فى هذا الاتجاه ، فقد تميزت بيئتهم بالبساطة ، وخلت حياتهم من الفكر العميق الذى اتسمت به حياة قدامى اليونان قبل الميلاد «الكلاسيكية» .

obeikandl.com

مراجع الكتاب الثانى

١ ـ القرآن الكريم :

٢ ـ أبى رشيق : العمدة ، القاهرة . المكتبة التجارية .

٣ ـ أبى سلام : طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة . دار المعارف ١٩٥٢ .

٤ ـ أبى قتيبة : الشعر والشعراء ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة . دار المعارف ١٩٥٢ .

٥ ـ أبى النديم : الفهرست ، القاهرة ، دار الكتب ١٩٥٢ .

٦ ـ المرزبانى : الموشح ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ القاهرة ـ نهضة مصر ١٩٦٥ .

٧ ـ الأصفهانى : الأغانى ، القاهرة . دار الكتب ١٩٦٣ .

٨ ـ المفضل الضبى : المفضليات ـ تحقيق أحمد شاكر، عبدالسلام هارون ـ القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ .